

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

ما علق في ذهني، وتردد في حنایا صدري، سؤال عائشة الصديقة لحبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - : يَا رَسُولَ اللَّهِ! ابْنُ جُدُّعَانَ، كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، يَصِلُ الرَّحْمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهُلْ ذَاكَ تَافِعٌ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا، رَبِّ اغْفِرْ لِي حَطِيَّتِي يَوْمَ الدِّينِ" رواه مسلم في صحيحه.

فلو أن ابن جدعان قال يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطئتي يوم الدين، لكان خليقاً أن ينفعه عمله الإنساني الضخم. وعزّز ذلك قصة الأعرابي، الذي جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيحين - فقال يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله علي.. فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشرائع الإسلام فقال الأعرابي: والذي أكرمك! لا أتطوع شيئاً، ولا أنقص مما فرض الله علي شيئاً، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ". وكان - صلى الله عليه وسلم - يحمي أغراض بعض المسلمين بقوله: أليس يشهد ألا إله إلا الله؟ كما في قصة عتبان بن مالك في الصحيحين، عندما اتهموا رجلاً بالتفاق، وودوا أنه - صلى الله عليه وسلم - دعا عليه فهلك، وودوا أنه أصابه شر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أَلَيْسَ يَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟" ، قَالُوا: إِنَّهُ يَكُوْلُ ذَلِكَ وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لَا يَشْهُدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ أَوْ تَطْعَمُهُ".

فما بالنا نبالغ في إحكام الأسوار، وغلق الأبواب، ونجعل تحصيل النجاة يوم الدين شيئاً أبعد من العيوق، ونحن نرى شرود الناس، وتسلط الشهوات عليهم.

أَفَهُمْ جيداً أن العصور الفاضلة - وما شهدت من النضج والطهر والرقى في بعض مجتمعاتها ومدارسها السلوكية وحلقاتها الموراثة مع حداثة عهدها بالنبوة وصفاء باطنها - يكون لدى بعض خريجيها إحكام لأنفسهم، وضبط لمتابعيهم، ولكن الدعوة شأن بشري إنساني، يأخذ المكلف من حيث هو، ليترقي به في مدارج الكمال ومعارجه شيئاً فشيئاً. ويستحضر البيئة والمستوى وما يغلب على الناس في عصر من العصور، أو مكان من الأمكنة، حتى قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ: "إِنَّكَ تَقْدِمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلَيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِنَّا عَرَفْنَا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ

خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَتُرْدُ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ" رواه البخاري ومسلم.

هنا تأصيل لفهم طبيعة المخاطبين، وظروفهم الدينية والثقافية والاقتصادية، كما في إشارة الزكاة، وكما في التدرج في الأوامر، حتى فيما يتعلق بأركان الإسلام.

ومع اتساع دائرة المنتدين للإسلام، وتعدد مشاربهم، وعدم القدرة على استيعابهم في مشاريع سلوكية وتربيوية مكثفة، فضلاً عن افتتاح التأثير من وسائل الإعلام والشبكات الاجتماعية والدراما والاحتكاك بين شعوب العالم، تبدو حاجة الدعاة إلى القرب من الناس، وتشجيع بادرات الخير في نفوسهم، مهما صغرت، وفتح أبواب الخير وطرقه، ومراعاة ضعف الهم، وتجدد المغريات.

لقد كان من فقه عمر بن عبد العزيز أنه قال: (يجد للناس من الأقضية بقدر ما يجد لهم من الفجور). وتلقى الفقهاء والأصوليون كلمته بالقبول والإطلاق، وعدوها من بدائع الحكم، وهي كذلك. وجاء الإمام المجتهد أبو سعيد ابن لب الغناطي (ت782هـ) شيخ الشاطبي، فكان يرتب عليها كلمة أخرى، هي كالآتى لها: "يجد للناس من المحفزات، بقدر ما أحدثوا من الفتور". ومن نافلة المعرفة، أن صاحب الهمة الضعيفة حين يرى أمامه جبلاً وعراءً، كثير المزالق، هو مزلة أقدام ومذلة أفهم، يحار فيه الخريث، ويضل فيه العليم، فهو خلائق بالإعراض، وإعلان الهزيمة والانسحاب من المضمار قبل خوض السباق

بيد أنه إن وفق لرشيد حكيم، عزز في نفسه الكفاءة، وأغرى بالخطوة الأولى، وأكَّد له أن الباقي سيكون أسهل منها، وأن كثرين لم يكونوا يظنون بأنفسهم القدرة، ثم واصلوا وعبروا.. وأن فضل الله ورحمته هي للمتعرضين لها، فلا تحجب نفسك دونها.. لكن الظن أن يشمر ويمضي.

وإذا مضى كانت النفس وجهاً لوجه أمام العقبات بصفة تدريجية، فالعقبات لا تأتي دفعة واحدة، ومع كل تشديد فرج، ومع كل عسر يسر، وفي الحديث بسند حسن: "تَنْزِلُ الْمَعْوَنَةُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ" رواه الحاكم في الكنى وابن عساكر والبيهقي والبزار وابن عدي من حديث أبي هريرة.

حتى يجد المرء نفسه وقد مضى في الشوط، وأحكم التجربة، وتعرض للنفحات، وبني علاقات وصلات، واستقرت في نفسه معانٍ من الخير، تردعه عن الانحلال التام، وتنادي به إلى التشمير، ولعل هذا ما سماه النبي - صلى الله عليه وسلم - "وَاعْظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ" من حديث التواد بن سمعان، عند أحمد، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

فهل يلقط الداعية هذا الخيط، ويسهل للناس سلوك الطريق، ويحفز همهم للانخراط، أم يظل منفراً لهم منه بالمباغة في ذكر أشواكه وعقباته وصعوباته وتحدياته، والإيغال في ذلك، وكأن لسان حاله يقول: من لم يكن موفور العزيمة تام الإرادة قوي النفس فلا يضع قدمه فيه!

ألم يقل بعض السلف - وينسب أيضاً للشافعي - رحمة الله - : (سيروا إلى الله عرجاً ومكاسير، فإن انتظار الصحة بطاله). أليس في التنزيل: (وَلَقَدْ يَسَرَنَا الْقُرْآنُ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) (القمر:17). أليس في وصية النبي - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ وأبي موسى الداعيَتَيْنِ الْمَبْعُوثَيْنِ إِلَى الْيَمَنِ: (بَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلَا تُنَنِّرَا وَتَطَّاوا وَلَا تَخْتَلِفَا) رواه البخاري ومسلم. أمر بالتبشير ونهى عن ضده، وأمر بالتشجيع والترغيب، ونهى عن ضده مما ينفر ويباعد!

على أن هذا مما يتفاوت بحسب نوع المخاطب، فثم مخاطبون قطعوا مشواراً طويلاً، واستقامت نفوسهم، واحتاجوا إلى أفق جديد، يمضون إليه برغبة و اختيار.

سعيًّا إلى الله بغير زاد، إلا التقوى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد، وكل زاد عرضة النفاد،

غير التقى والبر والرشاد

لكن الخطاب العام لجماهير الأمة، وفي الوسائل المعلومة كالقنوات والشبكات، أصبح هو لب الخطاب وأساسه، فهو يحتاج إلى ضبط وإحكام وعناية بالقدر الواسع العام الذي ينتمي الناس جميعاً. ولن يعد الداعية الحصيف لغة راقية مبتكرة، يخص بها أقواماً من المخاطبين دون أن ينجم عن ذلك ازدواجية في الخطاب، ولا اضطراب في المعايير.

جدير بالداعية أن يجعل الأبواب مشرعة للسالكين، وأن يحفز النفوس لفعل الخير وإن قل، وترك باب من الشر، ولو كان مصراً على باب آخر، وتعزيزه ولاء الناس لدينهم وصلتهم بربهم ولو كان ثم نوع تقصير أو غفلة، وكل عصر طريقه وأسلوبه المقتبس من شمولية الشريعة، والمتواافق مع متغيرات العصر ومستجداته. ومن هذا تغليب جانب الرحمة والحب والرفق والترغيب، وهو أصل في الشريعة باتفاقهم، فالحب قبل الخوف والرجاء، ويتأكد هذا في حالة غفلة الناس وصدورهم. الدعوة ليست ملكية خاصة لي، أريد أن أحيرها عن الآخرين، لئلا تكون كلاماً مباحاً متاحاً! الدعوة هي كلام طيب من رزق الله الإيماني العلمي لمن يشاء من عباده، فلماذا أحكم عليها الأسوار، وأدقق في هوية القادمين، وأتشدد في دخولهم.. أليست هي رحمة الله التي وسعت كل شيء؟ أمن العدل والإنصاف أن يدخل فئام من الشباب لأنفسهم لفظ الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، ليحكموا على من سواهم بالهلاك والخذلان؟

وكان الأجر أن يحسنوا الظن بغيرهم وينحوا على أنفسهم باللامة، فاللهم اغفر لنا ولهم، واهدنا إلى سواء السبيل.

الإسلام اليوم

المصادر: